تقرير التنمية الانسانية العربية لعـــام ٢٠٠٤ في سين وجيـــم !

(٣-٣)

١- ما الذي يريد واضعو التقرير ان يحققوه؟

من مواطن القصور التي حددها تقرير التنمية الانسانية العربية الاول في العالم العربي فجوة واضحة في مجال الحرية والحكم الصالح. اذ تقف المنطقة العربية على اعتاب مرحلة تغير تاريخي، ترتفع فيها دعوات الاصلاح الذي سيعين العرب على تحقيق الحكم الصالح، والتنمية، والتحرير من الاحتلال والهيمنة. كما تواجه المنطقة دعوات للاصلاح وافدة من الخارج. ويأمل المؤلفون " ان تذكي محتويات هذا التقرير الحوار المجتمعي في البلدان العربية حول سبل توسيع نطاق الحرية واقامة الحكم الصالح" عن طريق اثارة النقاش، والتفكير الخلاق، وروح الابتكار والعمل الجماعي في المجتمعات العربية كافة، ومن جانب جميع القوى الاجتماعية، بما فيها الحكومية . ويشخص التقرير وجوه النقص في ميدان الحرية والحكم العربي، ويوصي بعملية نوعية ستسفر عن اقامة الحكم الصالح. ويرمي التصور المقترح إلى حفز كل واحد من المجتمعات العربية على استكشاف معالم سبيله الخاص المفضي إلى الحرية والحكم الصالح، وقد يتم ذلك بتعديل هذا النموذج ليلائم ظروف المجتمع واحتياجاته المتميزة.

٢- ما المستخلصات والنتائج الرئيسة من هذا التقرير؟

يخلص التقرير إلى ان اوضاع الحرية والحكم الصالح في العالم العربي تعتورها حالات تتراوح بين الوهن والعجز الخطير. وعلى الرغم من نواحي التحسن المتناثرة في مجال حقوق الإنسان في بعض البلدان العربية، فان الوضع الكلي لهذا الجانب في العالم العربي خطر واخذ بالتدهور. ان حالة الحرية وحقوق الإنسان للعرب الذين يرزحون تحت نير الاحتلال، لا سيما في فلسطين بما في ذلك حق الحياة، تتعرض لانتهاكات خطرة.

وحتى في البلدان العربية المستقلة، فان ثمة فجوة جدية في الحرية والحكم الصالح، لان الانظمة التسلطية تتشدد بصورة حادة في تقييد الحريات وحق المشاركة السياسية والمجتمع المدني لتضمن عدم قيام معارضة يمكن ان تتحدى اشكال الحكم غير التمثيلية التي تفرضها تلك الانظمة. كما ان الحقوق الدستورية تتعرض للانتهاك، لان الانظمة التسلطية تحكم سيطرتها على القانون وتتلاعب به من اجل تشديد قبضتها على السلطة والحفاظ على مصالحها الخاصة.

٣- ما مدى الدقة في النتائج التي يخلص اليها التقرير عن احوال الحريات والحقوق الانسانية والحكم في العالم العربي؟ اليست هذه النتائج مجرد تجميع لتعميمات انطباعية تطرحها جماعة من المثقفين العرب الذين قد يقيمون الامور من منظورات معينة أو تحيزات خاصة؟

. يجمع فريق التقرير ثلة من ابرز الالمعيين في المنطقة بمن فيهم الدارسون والباحثون، ونشطاء المجتمع المدني، وصناع القرار. ومن هذا المنطلق، فان مدخلاتهم تمثل جماع الخبرة، والمعرفة والمعطيات والتحليلات التي ترفدها سنوات من الدراسة النقدية، وتقصي الحقائق، والنشر، والنشاط الهادف. وقد اختير الفريق ليمثل مختلف زوايا النظر من حيث مجالات الخبرة ، وطبيعة الاراء المحلية التي تنتشر في ارجاء المنطقة العربية.

مما لا يفسح المجال امام هذا الفريق على تنوع مشاربه وتشعب وجهات نظره، ان يلتقي على أي خط متحيز واحد. وعلاوة على ذلك، رجع فريق التقرير إلى كم ضخم من المعلومات المنشورة عن الديمقراطية والحقوق في المنطقة، بما فيها الوثائق التشريعية والتحليلات القانونية للدساتير الوطنية، وما يتصل بها من وثائق وعهود واتفاقات دولية. كما ان الاوراق الخلفية غطت البيانات والتحليلات الصادرة عن مؤسسات بحثية محلية واقليمية وتلك التي وثقتها الهيئات الدولية مثل الامم المتحدة نفسها، أو البنك الدولي. ونظرا لما في قدرات الفريق من تعدد وتنوع. فان الوثائق والتحليلات التي تم الرجوع اليها لا تغطي المواد المنشورة بالعربية فحسب، بل تتجاوزها إلى ما هو مطبوع بالانجليزية والفرنسية.

٤- إلى أي مدى يمكن ان تكون السياقات الاقليمية والعالمية مسؤولة عن المعوقات التي تعترض سبيل الحرية والحكم الصالح في العالم العربي؟

على الصعيد الاقليمي يتعرض السكان العرب الذين يعانون الاحتلال، ولا سيما في فلسطين للحرمان من كثير من حرياتهم الاساسية ومن انتهاك حقوقهم الانسانية. ومن شأن ذلك ان يترك اثاره على الوضع في الدول العربية الأخرى. فهو يقدم للانظمة التسلطية العربية ذريعة مؤداها ان ثمة تهديدات خارجية تستوجب ارجاء الاصلاح، والتحرك إلى صور للحكم أكثر تمثيلا للمواطنين. كما ان هذا الوضع يشتت انتباه القوى السياسية وقوى المجتمع المدني ويصرفها عن الجهود الرامية إلى تحقيق الحرية والحكم الصالح، ويدفعها بدلا من ذلك إلى التحول إلى مساندة الكفاح من اجل وضع حد للاحتلال.

وعلى الصعيد الاقليمي كذلك، تشكل الانظمة التسلطية شبكة من التعزيزات المتعاضدة في ما بينها بحيث تساعد كل منها الأخرى للحفاظ على سيطرتها السياسية في البلد الذي تتولى الحكم فيه. اما على الصعيد العالمي، فان الامتيازات التي تتمتع بها بعض القوى الكبرى تتيح لها ان تحول دون تبني القرارات الدولية التي تنفذ احكام القانون الدولي نفسه، مما يسهم في انتهاك حقوق الإنسان في المنطقة العربية. يضاف إلى ذلك ان بعض هذه القوى الدولية تساعد على تعزيز مواقع الانظمة التسلطية عن طريق التحالف معها، إذا توسمت في هذه الانظمة ادواراً تعينها في الحرب على الارهاب . وهذه الحرب، والخطاب الناشئ عنها، وتداعيات المناخ العام الذي تلا هجمات الحادي عشر من ايلول، اسفرت كلها عن تمييز وانتهاك صارخين لحقوق الإنسان ضد العرب والمسلمين في الغرب.

٥- ما المعوقات الداخلية التي تعرقل مسيرة الحرية واقامة الحكم الصالح في البلدان العربية؟

تكمن العقبة الكبرى في جود سلطات حاكمة لا تمثل الناس ولا تتعرض للمساءلة والمحاسبة. وهذه السلطات تنتقص من الحريات وتنتهك حقوق الإنسان لتحول من دون نشوء حركات فعالة تضغط من داخل المجتمع باتجاه البدء بتفاوض سلمي لتداول السلطة، وتبرز معه اشكال للحكم تكون أكثر تمثيلاً للمواطنين واكثر تعبيراً عن الارادة الشعبةي واكثر قابلية للمحاسبة والمساءلة امامها. وثمة معوقات مجتمعية أيضاً تحول من دون بروز القوى المدنية والسياسية القادرة على تعزيز الانتقال نحو الحكومة التمثيلية. وتتضمن هذه قوى اجتماعية تخاف الحرية، وتقاليد راسخة تحافظ على الوضع الراهن الذي يقوم على الهيمنة العشائرية وينكر الابداع، ووعيا محدوداً لمبادئ حقوق الإنسان التي لم ترم بجذورها بعد في البيئة الثقافية العربية، وضعفا في المجتمع المدني .

٦- وما التوصيات الرئيسة التي يطرحها هذا التقرير؟

يوصي التقرير بان تقوم البلدان العربية بالتوقيع على جميع الاعلانات، والاتفاقيات ، والمعاهدات التي تشكل بمجموعها القانون الدولي، وتدخلها بنوداً واحكاماً في دساتيرها، وتعبر عنها في تنظيماتها القانونية. كما تدعو التوصيات إلى البدء بنقل السلطة، على نحو تدرجي متفاوض عليه، إلى حكومات أكثر تمثيلا للشعب. وتتمثل الخطوة الاولى في هذه العملية في رفع اليد عن قوى المجتمع المدني، والسماح لها بالحريات / المفاتيح الثلاث: وهي حريات الرأي والتعبير والتجمع، مما سيفضي إلى اثارة نقاش دينامي حول السبل الكفيلة بتحقيق هذا الانتقال. وينبغي على المثقفين العرب، وطلائع المجتمع المدني، ان ينفضوا عن انفسهم غبار العزوف، ويسهموا في خلق اطار فكري وبيئة ثقافية يؤديان إلى الحرية والحكم الصالح. وسيفضي ذلك إلى بزوغ نخبة تمثل قطاعات المجتمع كافة، داخل اوساط الحكم وخارجها على حد سواء، لتتصدر الحركة نحو الحكم الصالح الذي سيؤدي بدوره إلى نهوض عربي. ولا بد لهذه العملية ان تتضمن اصلاح النظام السياسي، بالسماح للمشاركة الشعبية في انتخابات حرة نزيهة تكون نتائجها موضع احترام كامل، وتحقيق الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، مما يستلزم احترام استقلال الاخيرة وضمان مأسستها، وما ان يقوم الحكم الصالح، حتى يتوجب الاحترام الكامل للحريات الثلاث المترابطة المتداخلة، الا وهي حريات الرأي، والتعبير والتجمع، وضمانها في البلدان العربية. وينبغي ان تتجسد هذه الحريات الاساسية في الدساتير، وتتمتع بحماية قانونية بحيث يستحيل الانتقاص منها أو حتى الغاؤها باية تشريعات، مما قد يؤدي إلى "طغيان الاغلبية" الساعية إلى قمع اقلية ما.

٧- من بين المقترحات المطروحة للاصلاح السياسي الحقيقي، ما الاولويات الاكثر الحاحا لممارسة الحكم الصالح؟

يقترح التقرير اجراءً فورياً لاصلاح ممارسات الحكم، بمعالجة الاولويات الثلاث المفاتيح: الغاء حالة الطوارئ انهاء انواع التمييز كافة ضد اية اقلية أو جماعة، وضمان استقلال السلطة القضائية.

٨- إذا اخذنا بالاعتبار انه جرت انتخابات رئاسية وبرلمانية في عدة بلدان عربية، الا يمكن القول ان الديمقراطية والحكم الصالح موجودان في العالم العربي؟

. ان تقرير التنمية العربية الثالث ٢٠٠٤ يركز على ترسيخ معاني الحرية والديمقراطية في المنطقة. ولا يمكن للانتخابات الرئاسية والنيابية ان تؤدي إلى حكومة ممثلة للناس الا إذا كانت نزيهة وحرة تعكس ارادة الشعب المطلقة السراح، وتتيح لهم فرصة الانتقاء من خيارات. اما الانتخابات الرئاسية التي تطرح للاستفتاء مرشحا واحداً، أو توضع فيها الترتيبات لصالح السلطة التنفيذية القائمة القادرة على السيطرة على جميع موارد الدولة للحفاظ على مصالحها وافزاع خصومها واضعافهم ، فانها لا يمكن ان تعد تعبيراً سليما، عن الارادة الشعبية. وحين تجري مثل هذه الانتخابات الرئاسية، فانها ستجدد للرئيس الحالي باغلبية مطلقة، مع وجود استثناءات مشهودة، كالانتخابات الرئاسية الاخيرة في الجزائر، اما الاستفتاءات الرئاسية التي يكون فيها الحاكم الحالي هو المرشح الرئاسي الوحيد، فهي غاية في السطحية والضحالة. وتظهر تحديات اخرى في حالة الانتخابات التشريعية، ولا سيما عندما يحظر قيام الأحزاب السياسية، أو تطوع الدولة احزاباً سياسية منافسة للحزب الحاكم. اما الانتخابات البرلمانية، إذا سمح بها ، فانها كانت تعيد انتاج النخب الحاكمة نفسها، ويفضي ذلك بدوره إلى تحويل المجالس التشريعية إلى ادوات طيعة يمكن للسلطة التنفيذية الحاكمة ان تستخدمها لتعزيز نفوذها والتنكر وراء واجهات ديمقراطية.

٩- تدعو القوى الدولية الساعية إلى السيطرة على موارد المنطقة إلى اصلاحات ديمقراطية في العالم العربي. ويعتقد الكثيرون في المنطقة ان هذه القوى تنوي الحفاظ على مصالحها الخاصة. الا يساعد هذا التقرير تلك الدول الاجنبية ويزودها بالذخيرة اللازمة؟

صحيح ان قوى خارج العالم العربي قد استغلت تقريري التنمية الانسانية العربية الاول والثاني، ولا شك انها ستستغل هذا التقرير كذلك. غير ان هذا السؤال يقوم على مغالطة منطقية مؤداها ان ما يدفع هذه القوى الخارجية إلى التدخل في الشأن العربي هو نقد العرب لانفسهم ، لا مصالح هذه القوى الاجنبية ومطامعها في المنطقة. ان الضعف الذي انتاب المنطقة العربية هو الذي يمهد لانكشافها وتعرضها للتدخل الخارجي. وما من سبيل امام العرب للتصدي لهذه المخططات الخارجية واحباطها الا بالاقرار بحالة الوهن هذه، وتذليلها عبر النقد الرصين المتوازن المفضي إلى الاصلاح. وسيؤدي ذلك بدوره إلى تعزيز المنطقة وصيانه استقلالها ويقلل من استهداف القوى الخارجية لها.

١٠- في رأي واضعي التقرير، كيف ينبغي ان تكون الاستجابة للمبادرات الاجنبية الداعية إلى الاصلاح في العالم العربي سياسياً واجتماعيا؟

سيظل العالم العربي، بحكم موقعه الاستراتيجي وموارده، ولا سيما النفط، في بؤرة الاهتمام الحثيث من جانب القوى الكبرى، ومن هنا، فان العالم العربي لا يمكنه ان يتجاهل مثل هذه المبادرات الخارجية. والسيناريو الذي يفضله هذا التقرير لاحداث التغيير هو ان يتم من خلال عملية اصلاح تنطلق من الداخل. بيد ان السيناريو الانسب هو ان البلدان العربية التي تحتفظ بروابط حكومية ومجتمعية مع القوى الخارجية قد تتجاوب مع بعض هذه المبادرات الاجنبية. وعلى هذا الاساس، يغدو العرب النازعون إلى الاصلاح أكثر مبادرة ونشاطا وقدرة على اغتنام الفرص التي تطرحها المقاربات الاجنبية والانطلاق بعملية الاصلاح من الداخل. ومن شان ذلك ان يجعل عملية الاصلاح ونتائجها منسجمة مع الاهداف والتطلعات العربية، لا مع المطامع والمصالح الخاصة للقوى الاجنبية التي تعرض هذه المبادرات. ويرى واضعو التقرير ان مبادرات الاصلاح الاجنبية قد تسهم بصورة ايجابية في ادخال الحرية والحكم الصالح إلى العالم العربي إذا ما لبت عددا من الاشتراطات، واولها: ان تكون الحرية للجميع، وان يتوفر الاحترام الكامل لقوانين حقوق الإنسان الدولية، والغاء المعايير المزدوجة التي اتسمت بها بعض السياسات الغربية ازاء العالم العربي. والثاني: ان تستن القوى الاجتماعية العربية طريقها الخاص إلى الحرية والحكم الصالح، وان لا ترضخ للضغوط لتبني اية نماذج جاهزة مسبقا. والثالث: ان التمثيل الشعبي يجب ان يتمتع بالاحترام الكامل طيلة فترة دمج جميع القوى المجتمعية العربية في نسق الحكم الصالح. والرابع: ان يتاكد الاحترام الكامل لنتائج التعبير عن الادارة الشعبية، بما يضمن ان تكون هذه الارادة الشعبية، لا المصالح الاجنبية، هي التي تشكل صورة المستقبل العربي، اما الاشتراط الخامس، فهو ان منطق الوصاية الذي ميز التفاعل بين القوى العالمية والعالم العربي ينبغي ان يستبدل بالاحترام المتبادل والمشاركة المتساوية.

١١- ما تقويم التقرير لـ (مبادرة الشرق الاوسط) التي تدعو إلى اصلاح المجتمع العربي من الداخل، والتي تبنتها "قمة الثمانية" في شهر حزيران ٢٠٠٤؟

هذه المبادرة نسخة معدلة من وثيقة سميت " مبادرة الشرق الاوسط الكبير" التي سربت إلى صحيفة "الحياة" ونشرت فيها في شباط ,٢٠٠٤ وقد تعرضت الوثيقة الاولى لانتقادات شديدة لانها وضعت من دون مشاورة العرب، ورفضت الاقرار بان الاحتلال الاسرائيلي يلحق الضرر بكل من الحرية والتنمية في العالم العربي، ولانها لم تعط العرب دورا مهما في تحديد مسارهم في المستقبل. وقامت الولايات المتحدة بعد ذلك باعادة تشكيل المبادرة وتسميتها " مبادرة الشرق الاوسط الاوسع" بعد ان شاورت حلفاءها الاوروبيين وبعض القادة العرب. وعلى الرغم من ان المبادرة تقر وتعترف بان الاصلاح لا بد ان يتم من داخل المجتمعات العربية وان يلبي التطلعات العربية، وتشدد على اهمية حل النزاع العربي الاسرائيلي، فانها تنطوي على بعض اوجه القصور . فأهدافها أكثر تحديداً مما كانت عليه في الوثيقة الاصلية. كما ان توصياتها كانت قد ادرجت في مشروعات قائمة لم تحقق الكثير . وقد تساعد هذه المبادرة على اطلاق سلسلة من الاصلاحات في البلدان العربية. غير ان من المستبعد ان تحقق الاصلاحات القائمة على مثل هذه المبادرات الخارجية فحسب تطلعات الشعب العربية في التحرر الوطني.

١٢- ما راي التقرير في " اعلان عملية الاصلاح والتحديث" الذي اصدرته القمة العربية المنعقدة في تونس في ايار ٢٠٠٤؟

تضمن الإعلان كثيرا من المواقف السليمة غير انه لم يتطرق بصورة موسعة إلى مبادئ الحرية والحكم الصالح من حيث ضمان تداول السلطة والحفاظ على الصالح العام. كما انه مر "مرور" الكرام على الوسائل الفعالة الكفيلة بتطبيق المبادئ المتبناة.

١٣- الا يمثل هذا التقرير منظوراً غربياً في اغلبه على قضايا الحرية، وحقوق الإنسان، مما لم يعرفه العالم العربي منذ عدة قرون؟ والا يعني ذلك بالتالي ان من العبث ان يصر هذا التقرير على الدعوة إلى انتقال نحو الديمقراطية في العالم العربي؟

كلا! ان تجليات التعبير عن الحرية ظاهرة واضحة في السياق التاريخي العربي في مجالات الدين والسياسة، والاخلاق، والاقتصاد. وتقر النصوص الدينية في الإسلام بالحرية الدينية مع بيان ان " لا اكراه في الدين" (البقرة : ٢٥٦) و "لكم دينكم ولي دين" (الكافرون: ٦) . وفي النهج السني، لا كهنوت في الإسلام ولا مؤسسة شبيهة بالكنيسة، ومن هنا فان مفهوم السلطة الدينية أو الحكم ليس مسألة ذات بال، اما في المذهب الشيعي، فان مناهج التأويل المعاصرة، "أي الاجتهاد" تعلي من سلطة " الامة" على سلطة "الفقيه" . والامة ، بحكم ارادتها، تسبغ على الحكام سلطة محدودة المستوى والفترة الزمنية. وتجسد تاويلات النصوص في الإسلام وفي التاريخ الاسلامي المبادئ الجوهرية التي تساند الحرية والحكم الصالح. ومن الوجهة التاريخية رفض مناصرو الحرية مبدأ الطاعة لوي الامر، مستشهدين بان " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" . ويعد القرنان الثالث والرابع الهجريان " التاسع والعاشر للميلاد" عصراً التحرر، لان الحرية كثيرا ما تجلت فيهما بصور لم تكن تتفق مع ما كان يعد قواعد تقليدية . وبالمعنى الحديث ، ظهرت الحرية في الثقافة العربية ابان القرن التاسع عشر عندما ارتفعت اصوات كتاب ومفكرين من امثال رفاعة الطهطاوي ، احمد بن خالد الناصري، خير الدين التونسي، وعبد الرحمن الكواكبي، بالدعوة للتحرر من الطغيان العثماني، ومن الاحتلال الاوروبي فيما بعد. وخلال القرن العشرين غدت الحرية في الثقافة العربية تتخذ شكل المطالبة الجوهرية بحرية الفكر والاستقلال الوطني.

١٤- من الشائع في الغرب ان هناك مفارقة بين مبادئ حقوق الإنسان كما يجسدها القانون الدولي من جهة، والثقافة الإسلامية من جهة اخرى. فهل ثمة ما يدعو إلى دعوة البلدان العربية إلى التبني الكامل لحقوق الإنسان، وادماجها في انساقها القانونية على نحو ينسجم والقانون الدولي؟

ثمة مفارقة بالفعل. ان بعض البلدان العربية تستحضر خصوصية الوضع العربي لتبرر التخفيف من حدة قانون حقوق الإنسان في اراضيها. ويؤثر هذا التقرير تبني ميثاق عربي لحقوق الإنسان تستمد لحمته وسداه من الثقافة العربية . الإسلامية. ويكون مقبولا على الصعيد الاقليمي . وصحيح ان ثمة هو ة بين بعض جوانب المواثيق العالمية لحقوق الإنسان من جهة، والتاويلات التقليدية للشريعة الإسلامية من جهة ثانيةن ولا سيما ما يتعلق بالقوانين المفصلة لعقوبة الاعدام، والمساواة التامة بين الجنسين والتعامل مع الاقليات الدينية . بيد ان الرجوع إلى منطق الاجتهاد العقلاني الذي ينبع من المقام الاول من مصلحة الامة الإسلامية قد يفلح في شق الطريق، ويفضي إلى تمهيد السبيل لوضع اطار لحقوق الإنسان في العالم العربي يحترم حقوق الإنسان برمتها، مع التاكيد على ان هوية العرب القومية وتطلعاتهم هي ارث تاريخي ذو اهمية حاسمة في تعريف الواقع العربي ورسم معالمه في المستقبل.

١٥- بلغت أزمة الحرية والحكم الصالح في العراق مرحلة في غاية الحدة. فما ملامح المستقبل الذي يستشفه التقرير للعراق؟

اوجب الواجبات ان يتمتع الشعب العراقي بسيادته كاملة غير منقوصة، في ظل نسق من الحكم الصالح، وان يحافظ على وحدته على اساس المواطنة المشتركة، وعلى قوات الاحتلال ان تؤكد التزامها بالانسحاب الكامل من الأراضي العراقية كافة. وان لا تقدم على اقامة اية قواعد عسكرية دائمة في العراق . وينبغي ان يختار الشعب العراقي، بحرية نظاما سياسيا واقتصاديا، يقوم على اساس حقوق الإنسان ويلبي طموحات العراقيين، كما يجب اعتبار ما يطرأ على القوانين العراقية من تعديلات اجراءً مؤقتا سيكون معرضا للالغاء أو التاكيد من جانب حكومة ومجلس تشريعي منتخبين.

١٦- يقول التقرير ان السلطات العربية الحاكمة في المرحلة الراهنة تمثل قوى استبدادية تحتكر لنفسها الصلاحيات السياسية والاقتصادية . ثم يطالب بقيام نخبة سياسية عربية يكون لها موقع الطليعة في الدعوة إلى التغيير والانتقال إلى الحرية والمزيد من الحكم التمثيلي. الا يمثل ذلك دعوة للشعوب العربية للنهوض واستخدام القوة لاستحداث هذه الاصلاحات، مما قد يسفر عن اشاعة عدم الاستقرار في المنطقة؟

ان ما يطالب به التقرير لا يمثل باية حال من الاحوال دعوة لاحداث التغيير بالقوة. بل انه يدعو، على العكس من ذلك، إلى انتقال سلمي متفاوض عليه من حكم تسلطي باسره، بل تضم الاطراف التي تشارك في الحكم هذه الأيام. والقصد النهائي لهذا التغيير السلمي المحسوب هو تحاشي ما قد ينجم عن تراكم الغضب واليأس في بعض قطاعات المجتمع العربي، ولا سيما في اوساط الشباب الذين قد يحسبون ان جميع الفرص قد فاتت، وكل السبل غدت مسدودة في وجه التغيير السلمي. وستكون الحصيلة النهائية آنذاك عنفاً مدمراً متلفاً غير محسوب العواقب.

١٧- ينحو التقرير بالنقد على حالة الطوارئ القائمة في بعض البلدان العربية. واذا ما اخذت بالاعتبار اعمال التخريب والعنف المسلح في بعضها، وما تخلفه من تهديد للاستقرار الاجتماعي والسياسي، الا تجد الحكومات في ذلك مبررا لفرض حالة الطوارئ وجعلها سارية المفعول؟

تحاول بعض الانظمة التسلطية العربية ان تعوض عن غياب العقد السياسي الاجتماعي، والافتقار للشرعية التمثيلية ، ان تطرح نفسها باعتبارها السد المنيع الذي يحول من دون اندلاع العنف السياسي، وانهيار الدولة وشيوع الفوضى التامة. بيد ان الحل لا يتمثل في الانقضاض على المنشقين واستخدام قانون الطوارئ الذي يسمح بتعليق التشريعات العادية وامتهان الحقوق الانسانية والحريات. ذلك ان هذه الاعمال كلها تغذي حالة الغضب التي تفضي إلى العنف. وعلى كل حال ، فان حالة الطوارئ بقيت سارية المفعول في بعض الدول العربية سنين عديدة بعد زوال التهديدات التي أدت إلى فرضها اول الامر. ويعتقد مؤلفو تقرير التنمية العربية الثالث لعام ٢٠٠٤ ان الاكسير الوحيد الفعال لمواجهة الارهاب يتمثل في السعي لتحقيق التنمية العادلة والحكم الصالح على الصعيدين الاقليمي والعالمي.

تحت ظل الفلسفة الالمانية وعلم الاجتماع

بمناسبة مرور مئة عام على ولادة الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي رايمون آرون نشرت لوفيغارو هذا النص الذي كان قد اعد بمناسبة تسلم آرون جائزة عن ترجماته.

وصف الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي رايمون آرون في مذكراته صلاته وانجذابه الاختياري للثقافة الالمانية ، ويمكن الحديث حتى عن الصلات الخطرة ، لان معرفته بالثقافة الالمانية فاجأت العديد من رفاقه ، الذين صدموا من ذلك هم أيضاً ، وهنا اورد مثالين يقع احدهما في بداية مهنته الجامعية والاخر عند بلوغه القمة :

ترجمة : زينب محمد
عن لوفيغارو
بقلم : وولف ليبنيه

دفاعه عن اطروحته في عام ١٩٣٨ ودرسه الافتتاحي في الكوليج دي فرانس عام , ١٩٧٠

فعندما كان رايمون آرون يدافع عن اطروحته (مدخل إلى فلسفة التاريخ) في عام ١٩٣٨، كان يبلغ الثالثة والثلاثين من العمر، وكان عارفا جيداً بالمانيا وبتاريخها ، وكان في عام ١٩٣٠ قد حصل على منصب مساعد اللغة الفرنسية في جامعة كولونيا، لدى الاستاذ المشهور (ليوستبزر) ، وفي كولونيا قرأ اول مرة الرأسمال لماركس، ومن عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٣٣ شغل وظيفة في الدار الاكاديمية في برلين، وكان يقدم دروساً باللغة الفرنسية إلى المخرج المعروف ماكس رينارديت، وشهد وصول هتلر إلى السلطة وكان شاهداً مع (غولرمان) على محرقة الكتب، في ايار عام ١٩٣٣ امام اوبرا برلين التي دبرها غوبلز وجعل صعود الاشتراكية الوطنية رايمون آرون مهتماً بالسياسة الايديولوجيا وبناء الانظمة التوتاليتارية طيلة حياته، وفي الحقبة نفسها اعلن عن اكتشافه لعلم الاجتماع الالماني ووصفه بانه العجب! وفي عام ١٩٣٥ ، اصدر كتاباً حول الموضوع.

دافع آرون عن اطروحته في السوربون في السادس والعشرين من آذار عام ١٩٣٨ ، بعد بضعة أيام فقط على ضم قوات هتلر النمسا، وابدى ناقدوه والباحثون دهشتهم بسبب طاقته الفكرية والثقافية والتعاطف الظاهر الذي كان يتابع فيه تيارات الفكر الالماني، وكانوا متحيرين من انه كان يبتعد باسلوبه وبراهينه عن النموذج الفرنسي، ولم يكونوا يشاطرونه شغفه بالذهاب إلى ما وراء الراين.

اظهر الفيلسوف (ايميل بريهيير) بوضوح قلقه وقلق زملائه من رايمون آرون: "لقد سيطر الفكر الالماني بشكل كامل على فكرك" غير ان آرون الذي حصل على المركز الاول في دار المعلمين، تاركاً خلفه رفاقه الصغار: جان بول سارتر، وبول نيزان ، وجورج كانغيلهام. كان لامعا جيداً إلى الحد الذي لم يتأخر ، فقد تكلل دفاعه عن اطروحته بنجاح باهر.

ولم تكن دهشة المستمعين الباريسيين في عام ١٩٧٠ اقل عندما قدم آرون درسه الافتتاحي في الـ (كوليج دي فرانس) تحت عنوان :" الظرف التاريخي لعالم الاجتماع" واتاح ذلك لعالم الاجتماع الاول في فرنسا ان يضفي الشرعية على توجه كان يقوم في جوهر عمله على بحوث كاتب الماني هو ماكس نيبر، وليس على بحوث واعمال ايميل دورلهايم مؤسس المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع.

ان رايمون آرون المتعنت بشأن هذه النقطة، وربما على نحو كبير جدا، مضى حتى إلى الحديث عن حساسيته من عالم الاجتماع دورلهايم ووجه لومه اليه والى تلامذته لانهم بخسوا كثيرا دور السياسة ، ولا سيما دور نضال الأحزاب والصراعات الطبقية التي ميزت القرن العشرين بطابع التوتاليتارية، فاية سطحية في احاديث ايميل دوركهايم الذي وصف الثورات السياسية بانها احداث سطحية وممسرحة واحداث عابرة غير جديرة باهتمام علماء الاجتماع! ان التجارب والخبرة التي اكتسبها آرون في المانيا علمته شيئا آخر. فقد صنعت منه متفرجاً ملتزماً وراصداً متحمساً أكثر منه محللاً سياسياً بارداً. كان آرون يشعر بصلة روحية مع ماكس فيبر وميكافيلي الحر والوحيد الذي كان شجاعاً في وصفه خيبة العالم بطريقة ذكية وقاسية في الوقت نفسه.

وفي شخص آرون ونتاجه فتعرف على ما وراء حروب الثقافة الفرنكو . المانية : " صلة عميقة توحد شعبينا" . وبرأيه " فان المانيا كانت قدر فرنسا" وكان كاتب المذكرات آرون يجد ان شغفه الخاص بالمانيا مبالغ به قليلا وهو الذي استمر حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية.

" تمردت وثرت ضد الحرب السابقة، وثرت ضد سياسة فرنسا الخارجية التي وجدتها مجردة من المآثر، وكنت احلم بالمصالحة بين فرنسا والمانيا".

وقدر فرنسا الالماني هذا وصفه رايمون آرون في مذكراته ، وفيها ذكر جاذبية الثقافة الالمانية التي خضع لسحرها طيلة حياته ، فبعد خدمته العسكرية في سان رسير قرأ "كانت" ومرّ عام باكمله لم يقرأ فيه شيئا غير "كانت" ليقع تحت تاثير هذا الفكر الفلسفي الثر، وفي فرنسا، لم يثر حماسته أي كاتب. أو عالم اجتماع أو فيلسوف ولم تكن لدوركهايم ولمدرسته مكانتهما بين الفلسفة الالمانية والادب الفرنسي.

وعدا "كانت " و " بروست" ايقظت فيه السياسة الحماسة، فقد شجعه على نحو خاص مشاعر الجمهور في الاجتماعات العامة الكبرى التي كان يحضرها، ولكنه سرعان ما فهم وسلم ان السياسة، ولكونها كذلك فانها لا تخضع للاخلاق ، وكان يدين بهذا الكشف المأساوي الذي لا يمكن اصلاحه بين السياسة والاخلاق إلى ماكس فيبر لقد تحدث ماكس فيبر ذات يوم عن التنافس بين الثقافة الالمانية والثقافة الفرنسية ، وقارن هذا التنافس بمعركة بين الالهة لا يخرج منها احد منتصرا ، وفي صراع الآلهة هذا، لم يسع رايمون آرون اطلاقاً إلى تنصيب نفسه حكماً، ولكنه كان يلعب فيه دوراً توفيقياً طوال حياته.

ولم يكن قليل الإحساس باشكالية الترجمة ومعانيها ففي دار المعلمين وجد آرون ان من الخزي ان لا يتعاون الفلاسفة الفرنسيون والالمان واذا ما تعارفوا كما حصل لما بعد"كانت" وفيتشه وهيغل، فانهم لم يظهروا في برنامج الاجتماعات اطلاقاً بذريعة ان اعمالهم الرئيسة لم تكن مترجمة إلى اللغة الفرنسية. واجتهد أكثر من أي شيء اخر لانتزاع هذه الذريعة من رفاقه الفرنسيين، كان مترجماً منقطع النظير، ولهذا السبب فان الفائزين بالجوائز اليوم لا يريدونني ان اؤكد على ان ترجمات رايمون آرون . الفرنسية . الالمانية بالعلوم الانسانية والفلسفية والاجتماعية لا تظاهى ، وستبقى كذلك لمدة طويلة.

وفي الحقيقة يبدو لي ان دوره كمترجم كان مثالياً، فمن خلال ترجماته الفلسفية في العلوم الاجتماعية الالمانية قدم للفرنسيين اسهامات مهمة. ولاننا يمكن ان نفهم نصاً على نحو أفضل في لغته الاصلية عندما نقرأ ترجمة عنه، فانه كان يتردد بشكل منهجي على الاوساط المختلفة من اجل ان يفهم بشكل أفضل بيئته الثقافية الخاصة. وهذا لا ينطبق فقط على فلسفة / الين/ كمثال، التي اكد آرون بشأنها انه لم يستطع دراستها بطريقة معمقة الا بعد ان فهم الفلسفة الالمانية ، كان عليه ان يذهب إلى المانيا ليفهم فرنسا بشكل أفضل كان "لاتدريه موروا" أكثر من سبب وجيه عندما كتب ذات يوم بان آرون قد اصبح بالنسبة له ولجيله "مونتسكيو جيلنا" .

لم يكن رايمون آرون الذي كان يرى مونتسكيو باعتبار كبير ويشاركه في احترام القانون ولم يكن يعده اول عالم اجتماع بل عالم الاجتماع بامتياز، وكان لهذه العلاقة قيمة بالنسبة لمؤلف "روح القوانين"، فكان آرون يشبهه : فجزء كبير من اعماله يمكن قراءتها بوصفها "رسائل المانية" فيها اعتراف بالحضارة الفرنسية.